يوم الجـــلاء ...!

للأستاذ علي الطنطاوي

« .. ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار »

— ١ —

ماذا في دمشق ؟ في كل ميدان فيها عرس ، وفي كل حيّ فرح ، وفي كل شارع مهرجان ! ما هذه الزحمة ؟ ماهذه الوفود ؟ الطرقات كلها مترعات بالناس ما فيها موطئ قدم ، وحيثما سرت ترَ قباباً من الزهر وستائر من الحرير ، وعلى دمشق سماء من صغار الأعلام ومصابيح الكهرباء ، قد انتظمتها حبال فدارت بها ، ثم انعقدت على أشكال العقود والتيجان ، فكانت منظراً عجباً ، إذا رأيتها في الليل حسبت السماء قد ركبت فيها ، فسطعت كواكبها وتلألأت نجومها ، وإذا أبصرتها في النهار ظننت الربيع قد عاد مرة ثانية ، فكان كل شارع روضة فتانة ، ضرب فيها موعد حب ، وكل بناء عريشة ورد وفلّ وياسمين ... وأغلى الطنافس مبسوطات على الجدران ، وأحلى الصور معلّقات على الطنافس ، والسيوف المذهبة والتحف الغالية ... مايضنّ الناس بقيّم ولا يبخلون بثمين .

والرايات : السورية والمصرية والعربية السعودية والعراقية واليمانية والأردنية ... أستغفر الله العظيم ، بل هي راية واحدة اتحدت حقيقتها وتعددت ألوانها ، لأمة واحدة اختلفت أزياؤها وتناءت أوطانها ، فألفت بينها قبلتها وأدناها قرآنها . أمة آخى الله بين أفرادها من فوق سبع سماوات ، فأراد الظالمون تفريقها بخشبات ينصبونها على الطرقات ، يسمونها حـــدوداً ، خسأ الظالمون ... وخابوا ... إن بناء تقيمه الله لاتهدمه خشبة نخرة ولا خرقة مرقعة !

لقد أوقد الليلة في دمشق خمسمائة ألف مصباح ، ونشر فيها ألف ألف علم ، عدّت عداً ، ورفع فيها مائة قبة من النور يعدو تحت إحداها الفارس من سمتها ، ووضع في أرجائها مائة مذيع مصوّت ، يخرج منه النداء والهتاف والخطاب فيسمع في أقصى النوطة ويردد صداه الجلود من قاسيون ، ومشت فيها خمسة آلا(ف) (عراضة)[1] وموكب ، وأقيمت ألف (دَبْكة[2]) ، وفي كل مكان ازدحام ، وعلى كل ثغر ابتسام ، وفي كل قلب فرحة وكل الناس مبتهج مسرور ، الرجال والنساء والشيوخ والأطفال والهتاف متصل ما ينقطع ، والنشيد دائب ما يسكت ، والخطب والمحاضرات والزغاريد[3] والأغاني ، من المصوّتات[4] والرداد[5] والحاكيات[6] والأفواه ، والطبول تقرع ، والمدا(فع) ترعد ، والطيارات تركض في السماء ، والسيارات تزحف (على) الأرض ، والصواريخ تنفجر في الجو فتتساقط منها الأنو(ار) أمطاراً ، والجيش يحمل مشاعله ينشد ويزمّر ، يشارك الأمة أفراحها ، وما عهدنا (هذا) الجيش يشاركنا في فرح ولا ترح ما عهدناه إلا عونا للغاصب علينا ، ضاحكا في مآتمنا عابساً (في) أفراحنا ... يدور بالمشاعل في شوارع دمشق ، يذكّر بالجيش الإسلامي لما حمل القرآن مشعل النور الهادي فأضاء به الأرض وهدى أهلها . وعلى كل جبل من جبال دمشق نيران ضخمة أضرموها ، كما أضرمت من قبل نيران (الفتح) على جبال مكة إيذانا بتطهير الكعبة وتهديم الأصنام ، و (إجلاء) الشرك عن البيت الحرام .

وفي كل دقيقة يفد على دمشق وفد جديد : مواكب وعراضات من كل بلد وقرية وناحية ، قد لبسوا أحسن ثيابهم وجاءوا يعرضون أمتع فنونهم ، وأعجب ألعابهم ، ويهتفون أجزل هتافاتهم ، فكأنه عيد الأولمب عند اليونان : فمن صراع إلى دبكة إلى قفز إلى لعب بالسيف والترس ، إلى عدو بالخيل ، إلى تمثيل وغناء ...

وهياكل ضخمة ، أعدها الشباب ، فوضعت على ظهور السيارات ، على أشكال القلاع والمدافع والمدرعات ، وشيء يمثل أيام العذاب ، ومراحل الجهاد من ميسلون إلى الجلاء — فالعين رائية كل لون وشكل ، والأذن سامعة كل نغمة ولحن ، وفي

(١) موكب شعبي يتقدمه قوال يقول فيردد الناس مقاله .
(٢) رقص قروي له أغان خاصة وأبرع الناس فيه أهل لبنان .
(٣) هتاف النساء .
(٤) أردنا بها مكبرات الصوت .
(٥) جمع راد وهو الراديو لأنه يرد الصوت الذي خرج من المذياع.
(٦) أي الفونوغرافات .

كل فؤاد هزة طرب ، وعلى كل لسان صيغة حمد وكلمة ابتهاج ، والليل يتصرم وما تخلو الساحات ، ولا يفتر النشاط، ولا يسكت الضجيج ، وما يفكر أحد بمنام ، فكأنما قد جنّ البلد .

* * *

فماذا فى دمشق ؟ أى يوم هذا من أيامها ، عظمت أيام دمشق وكرمت وجلت ؟

ألا إنه يوم الفرحة الكبرى ، إنه اليوم الذى كان يتمنى كل شامى أن يراه ، ولا يبالى إذا رآه أن يموت من بعده . إنها الغاية التى سرنا إليها خمساً وعشرين سنة وتسعة أشهر ، نطأ الحراب ، ونخوض اللهب ، ونسبح فى الدم ، ونتخطى الجثث ، ونتنشق البارود .

إنها الأمنية الكبرى التى كان يتمناها كل سورى ، وكل عربى وكل مسلم .

إنه يوم الجلاء .

لقد جُنت دمشق وحُقّ لها أن تجن ، فقد عاد الحبيب بعد طول الفراق ، وآب المسافر بعد ما امتد الغياب ، وعانقت الأم وحيدها بعد ما ظنت أن لا لقاء ، وخرج الفرنسيون وزال الانتداب !

* * *

إنه يوم الجلاء ...

فيا أيها الذين عادوا من ميسلون بقلوب كسيرة ، ونظروا إلى موكب الغاصب بعيون دامعة ، وحملوا الظلم بأعصاب صابرة ، وشاهدوا جبروت المحتل وطغيانه ووحشيته ، والعرش الذى أقاموه على دماء قلوبهم وعزائم سواعدهم هوى ، والبلاد التى رآها الله واحدة قسمت فجعلت دولا ... والوطنى المخلص نفى أوسجن ، أوحكم عليه بالموت شنقاً، والخائن الملون قدأعطى الرتب والذهب ...

ويا أيها الذين خرجوا على الظلم ، وعرضوا أرواحهم للموت ، على شعفات الصخر ، من جبال اللاذقية إلى جبل الدروز ، وعلى السهول الفيح ، من أعالى حلب إلى أدانى حمص ، وعلى ثرى الجنات من أرض الغوطة ، لم يخشوا فرنسا إذ كانت تخشاها الدول ، ويرهب بأسها الأقوياء ...

ويا أيها اللذين نشأوا[1] فى عهد الانتداب ، فرأوا فى كل مدرسة مستشاراً فرنسياً هو الآمر الناهى والمدير[1] تمثال ، وفى كل وزارة مستشاراً هو الفاعل التارك ... والوزير صنم ، وفى كل قضاء مستشاراً هو الحاكم وهو المنفذ وهو الأمير ، وفى وسط المدن مراكز للعدو ، وعلى الجبال قلاعاً له قد وجهت مدافعها إلى البلد لتضرب أبناءه إذا طالبوا بحق أو أبوا ظلماً ، لا إلى الفضاء لترد عنه الأعداء ، وفى كل طريق جنداً من الفرنسيين والمغاربة المسلمين ... والسنغاليين والشركس والأرمن و ... الدمشقيين الخائنين ، يلوحون بأسلحتهم فى وجوه أهل البلد ، ويرمونهم بالشرر (فى السلم) من نظراتهم ، وبالنار (فى الثورات) من بنادقهم ...

ويا أيها الشهداء الذين قضوا بنيران العدو الباغى ، فى سبيل الله ثم فى سبيل الحرية ، وهل تسمع أرواحكم دعائى يا أيها الشهداء ؟

ويا معشر العرب فى قاص من الأرض ودان .

إنا نحمد الله إليكم ، تبارك اسمه ، وجل جلاله ، فقد أكمل نعمته ، وأتمّ منّته ، وأخرج الفرنسيين من الشام كله ، فلم يُبق منهم أحداً .

اذهبوا الآن إلى (المزّة) وادخلوا القلعة ، وأمّوا الثكنة الحميدية ، فانه لايمنعكم حارس سنغالى وجهه يقطع الرزق، ولا يردكم ضابط فرنسى ، ولا تحجزكم سلك ذات أشواك ... وسيروا فى طريق الصالحية فادخلوا قصر (المفوض السامى) الذى كان يتنزل منه وحى الضلال على قلوب الخونة المارقين من طلاب الحكم وعشاق الكراسى ، فيكونون لربه عبيداً أذلة ، وعلى أبناء بلدهم فراعنة مستكبرين ، ولجوا قصر (المندوب) الذى كان ينصبّ منه (أمس) الموت الزؤام على من يدنو من حماه ، واسرحوا وامرحوا حيث شئتم ، فالبلاد بلادكم ، لا فرنسى ، ولا إنكليزى ، ولا طليانى ولا رومى ، ولا أشقر ولا أسود ...

ألا لا مفوض (سامى ...) اليوم ، ولا مندوب !

لقد ذهبوا جميعاً ، وما تركوا من جنات زرعوها ولا عيون ، ما تركوا إلا بيوتاً كانت عامرة فجعلها حكمهم خرائب ، وجناناً صيّروها مقابر ، وضمائر نفر منا كانت نقية فدنسوها ... ذهبوا وما أورثونا خيراً قط .

* * *

هذا قصر المفوض السامى الذى كان بالأمس يزعم أنه إله

---

(١) كذلك يكتبها الناس والقاعدة فيها (نشؤوا) فمتى نتخلص من هذه الفوضى ؟

(١) واسمه فى مصر الناظر .

٢٦٠٣٦

الأرض ، تعالى الله ما من إله غيره ، وكان كلما نزت برأسه نزوة من حماقة جعلها قانونا ، وحمل الناس عليها بسنان البندقية وفم المدفع ، قوانين ينقض بعضها بعضاً ، ويلغى أواخرها الأوالى ، ولا يحصيها عالم ولا جاهل : (إن الفوض ، بناء ، وبناء ... يقرر تعديل الجملة الثانية من الفقرة الأخيرة من المادة ١٨ من القرار ١١٠٥ ل.ر) فلا يعرف جنى ولا إنسى ، ماهذه الفقرة ، ولاماهذه المادة ، ولا ماهذا القرار ... لقد ذهب وأورثنا عشرة آلاف قرار مثل هذا ! ذلك هو التشريع الفرنسى الذى يحسبه القردة المقلدون ، أفضل من شرع ربنا ، لأن عليه (الطابع الأوربى) !

هذا هو قصر الفوض الذى سرقه من فيصل ، فيافيصل ، يا أيها الملك ! ارفع رأسك مرة واحدة وانظر ... إنها لم تطل المدة .. إن اللص قد طرد ، وإن الباغى قد دارت عليه الدوائر ، فما دافعت عنه جنوده ، ولا حمته حصونه ، ولا أغنت عنه مدافعه وطياراته . لقد جرب فينا أسباب الموت كلها فما صنعت شيئاً . لم تحرقنا ناره ، ولم يقتلنا حديده ، لأننا أمة لا (يمكن أن) تموت ! وأحرقته هو نار حماستنا ، وقتله حديد عزائمنا ، فولى عنا باللعنة ، كما دخل علينا باللعنة !

* * *

اليوم يوم الجلاء .

اليوم يبكى رجال (منا) كانوا يأكلون الطيبات ، وينامون على ريش النعام ، من بيع ضمائرهم للأجنبى ، على حين كان الناس ينامون على التراب ، ويأكلون الخبز اليابس .

اليوم يبكى رجال حملتهم الخيانة فوضعتهم على مقاعد العز فى أبهاء الحكومة فصاروا من كبار الموظفين .

اليوم يبكى رجال كانت لهم فى سجلات (الاستخبارات) أسماء ، فصاروا اليوم أيتاما كالأجراء فى المزبلة بعدما مات الكلب .

ولكن الشعب كله يضحك اليوم ، وتضحك معه الدنيا .

اليوم يضحك البلد بالزينات والأعلام ، ويضحك الليل بالأضواء والمشاعل ، وتضحك المنائر بالتكبير ، وتضحك النواقيس بالرنين ، وتضحك الأرض والسماء !

اليوم يرى الشاميون الفرحة الكبرى التى تنقش ذكراها على قلوب الأطفال والشباب فلا تمحى أبداً ، وتكون لقلوب الكهول والشيوخ شبابا جديداً ، كما كانت الفجيعة فى ميسلون شيخوخة مبكرة لهذه القلوب التى شابت من الهول قبل الأوان !

* * *

لقد نامت دمشق البارحة ملء جفونها من بعد ما صرمت تسعة آلاف وثلاثمائة وسبعاً وتسعين ليلة[1] وهى تنام مفزعة الفؤاد ، مقسمة اللب ، تخشى أن تصيبها من الفرنسيين بادرة طيش ، أو نوبة لؤم ، تذهب بدار عامرة ، أو تضيع حقاً ظاهراً ، أو تريق دماً بريئاً ؛ وأغفت تحلم بالمجد والحرية ، وقد مرت عليها تلك الآلاف من الليالى ، لا تحلم فيها إلا بتهاويل الظلم والموت والخراب ، وتأنس بطيوف الأحبة من جند العرب فى مصر والعراق والحجاز ونجد ، وقد زهت بهم دمشق أن قدموها ضيوفا كراماً بل إخواناً وأصحاب البلد ، وقد كانت تروعها كلما نامت أشباح الأبالسة تتراءى فى صور جند من الشقر أو السمر أو السود الفرنسيين والمغاربة[2] والسنغاليين ، وأمنت الأم على ولدها أن تتخطفه الشراكسة زبانية (كوله) فتلقيه فى سجن عميق ، أو منفى سحيق ، أو تذيقه النكال والتعذيب ، لوشاية كاذبة ، أو تهمة باطلة ، أو طمعاً بفدية أو مال ، واطمأن السكان على منازلهم أن تدمرها فى هدأة الليل قنابل الطغاة أو تحرقها نارهم أو تسرقها أيديهم ! لقد نامت دمشق البارحة وهى تودع عهد الانتداب ، عهد الجهاد والعذاب ، لتستقبل عهد الحرية ، عهد البناء . ونهضت دمشق تستبق الفجر الطالع تؤم الشوارع التى يعرض فيها جيش العروبة ، فما طلعت الشمس وفى النوافذ والشرفات وعلى ظهور البنى والعمارات ، فى شارع فاروق وفؤاد والجامعة السورية والسنجقدار ، وميدان المرجة وضفاف النهر ، وفوق قباب التكية السليمانية ، وعلى أشجار المسالك ، وفى كل مكان يشرف على الطريق ، ما طلعت الشمس وفى ذلك كله شبر واحد خال من رجل إنسان قد قام لينظر ويتطلع ، وأجر المقعد الواحد بعشر ليرات ، ومكان الوقوف بليرتين . فكان هذا المنظر أحد الأعاجيب .

ونصب الفسطاط ، واجتمعت تحته الأقطار العربية كلها ، جاءت وفود ملوكها وأمرائها من القاهرة والرياض وبغداد وبيروت وعمان ، وصنعاء والقدس ، يهنئونها فى عيدها ،

(١) من يوم الاحتلال ٢٥ تموز يوليوسنة ١٩٢٠ الى يوم الجلاء ١٧ نيسان (إبريل) ١٩٤١ .

(٢) المغاربة من أكرم إخواننا علينا ، ولكن منهم ومنا خوارج علينا ، ضربوا بسيف عدونا وانا لنلعن خوارجهم كما نلعن خوارجنا